(٤٣)

# الجامعة الفاذة

قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وتأكيداً لهذا المعنى الوارد فى هاتين الآيتين .. يقول تعالى :

* ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

* ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وهذه الآيات وغيرها من مقتضى العدالة الإلهية عند الحساب فى الآخرة، فضلاً عما يعجل به الله من ثواب وعقاب فى الدنيا.

وكان رسول الله ﷺ يسمى هاتين الآيتين من سورة الزلزلة «الجامعة الفاذة» كما جاء فى تفسير القرطبى .. وتفسير هذا القول يتضح فيما يلى من مرويات وردت فى تفسير القرطبى :

* روى أن رجلاً جاء إلى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: علمنى مما علمك الله، فدفعه لرجل يعلمه فعلمه سورة الزلزلة فقال الرجل بعد أن استمع إلى الآيتين الأخيرتين منها: حسبى .. (أى يكفينى ذلك). فأخبر النبى بما قال الرجل. فقال: «دعوه فإنه قد فقه» رواه معمر عن زيد بن أسلم.

* وقدم رجل على النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستمع إليه وهو يتلو سورة الزلزلة فقال الرجل: لا أبالى ألا أسمع من القرآن غيرها، حسبى فقد انتهت الموعظة. ذكره الثعلبى عن الحسن.

* وروى أن أعرابيًا سمع النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقرؤها فقال: يا رسول الله أمثقال ذرة قال: نعم. فقال الأعرابى: واسوأتاه .. قالها مرارًا، ثم قام وهو يقولها فقال النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان».

* قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ هذه أحكم آية فى القرآن.

قال القرطبى: صدق، والآية المُحكمة .. هى التى لا يُختلف فى تأويلها ولم تأت بعدها آية تنسخها.

* وقال كعب الأحبار: لقد أنزل الله على النبى آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور .. وذكر الآيتين.

* وروى أن مسكينًا استطعم السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبين يديها عنب فقالت لأحد الناس: خذ حبة فاعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويتعجب. فقالت: أتعجب ؟! كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟!

* وروى عن سعد بن أبى وقاص ـ رضي الله عنه ـ أنه تصدق بتمرتين .. فقبض السائل يده (امتناعًا عن أخذهما) فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذر، وفى التمرتين مثاقيل ذر كثيرة.

من كل هذه المرويات يتبين لنا معنى تسمية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهاتين الآيتين من سورة الزلزلة «الجامعة الفاذة».

ويضيف الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى كل ما سبق وتأكيدًا للمعنى .. قوله:

* «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلق أخاك بوجه طليق» رواه مسلم عن أبى ذر ـ رضي الله عنه ـ.

* «اتقوا النار ولو بشق تمرة» متفق عليه ـ رواه عدى بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ.

وصدق رسول الله ﷺ.

(٤٤)

# الجمال وصف لخلق وخلق الرسول ﷺ ووصف للخالق وما خلق من مخلوقات

سُئلت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ..

فقالت: كان خلقه القرآن، وقال هو عن نفسه: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وشهد له الله ـ تعالى ـ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ثم لخص صلوات الله وسلامه عليه سبب بعثته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

تعالوا بنا بعد ذلك .. نستعرض كيف كانت أخلاق الرسول القرآنية وكيف أدبه ربه فأحسن تأديبه حتى استحق بذلك شهادة الله له بالخلق العظيم .. فأتم بذلك مكارم الأخلاق وذلك من خلال كلمة «الجمال» في القرآن الكريم. فكما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتصف بجمال الخلْق، كان يتصف أيضاً بجمال الخُلُق.

١ ـ قال تعالى في سورة المعارج: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

فالصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد. صبر الواثق من العاقبة. الراضي بقدر الله. ا لراضي بحكمته من وراء الابتلاء. وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب دعوة الحق .. فهي دعوة الله، وهي دعوة إلى الله.

٢ ـ وقال تعالى في سورة المزمل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

فالهجر الجميل الذي يسبقه الصبر ويلزمه .. لا عتاب معه ولا غضب، أي كن رفيقاً بهم، متوددا إليهم، ولا يحملنك ما يرمونك به عن سفاهة أو جهل على الدعاء عليهم، بل ارفق بهم والتمس العذر لهم، فهذا هو شأن العالم مع الجاهل والطبيب مع المريض. لذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو لقومه ويقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». وكان هجره لهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي شعب أبي طالب، ثم إلى المدينة المنورة .. كان هجراً جميلاً اتباعاً لأمر الله ـ تعالى ـ له في هذه الآية.

٣ ـ وقال تعالى فى سورة الحجر: ﴿ ... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾.

[الحجر: ٨٥].

فالصفح الجميل الذى لا ضغينة فيه ولا حقد، ولا إضمار سوء للمصفوح عنه.

ولقد نزلت هذه السورة المكية فى عام الحزن الذى ماتت فيه السيدة خديجة ﵂ وعمه أبو طالب، وفقد الرسول عليه الصلاة والسلام الأنيس والنصير، فاشتد إيذاء المشركين فسرى عنه الله ـ تعالى ـ برحلة الإسراء والمعراج، ونزول بعض السور مثل سورة يوسف.

وهذه السورة التى تشتمل على قصص الأنبياء من قبله وما لاقوه من إيذاء من أقوامهم مع شيء من التفصيل لقصة لوط عليه السلام مع قومه، فمهما فعلت قريش فلم تفعل معه مثلما فعل قوم لوط مع نبيهم فانتهكوا الحرمات وخالفوا الناموس، وجاءوا لينتهكوا حرمة بيته وضيوفه ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر: ٦٨، ٦٩].

وكان هؤلاء الضيوف من الملائكة فى هيئة الإنسان .. جاءوا بالبشرى للوط عليه السلام ومن آمن معه، وبالهلاك لمن عاندوه وآذوه.

واتباعًا لهذا التوجيه الإلهى .. عندما جاء ملك الجبال للرسول عليه الصلاة والسلام وهو لا يزال فى مكة وقال له: «لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين» .. أى جبلا مكة فما كان من الرسول عليه الصلاة والسلام إلا أن قال له: «لا .. لعل الله يُخرج من أصلابهم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». وقد كان فعلاً ما تمناه الرسول عليه الصلاة والسلام وخرج من أصلابهم من جاهدوا فى سبيل الله لكى تكون كلمة الله هى العليا ففتحوا البلاد ونشروا نور التوحيد الذى بدد ظلمات الشرك والكفر فى أرجاء الأرض وكان قمة الصفح الجميل عندما فُتحت مكة فى العام الثامن من الهجرة وقال لأهلها: «ماذا تظنون أنى فاعل بكم» قالوا: خيراً .. أخ

كريم وابن أخ كريم. فقالها مدوية وحفظها لـه التاريـخ فـى موقـف لا نظيـر لـه : «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

٤ ـ وقال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

[الأحزاب: ٢٨].

والسراح الجميل .. هو مفارقة الزوج لزوجتـه بالحسنـى إذا استحـالـت المـودة والرحمة بينهما.

وهذا الأمر عرضه الرسول عليه الصلاة والسلام على أزواجه عندما تغلب عليهن طبع النسوة وطالبنه بزيادة النفقة ورغد العيش، فأنزل الله عليه هذه الآية .. والآية التى بعدها: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩]. وانتهى الأمر بأزواجه أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكنَّ من المحسنات اللاتى أعد الله لهن أجراً عظيماً فى الآخرة .. وهكذا ينبغى أن يكون اختيار الزوجة الصالحة.

ولا عجب أن يكون الجمال فى كل خُلُق أدب الله ـ تعالى ـ به رسوله عليه الصلاة والسلام وفى كل أمر أمره به، فإن كان المأمور .. جميل الخلْق والخُلُق، فإن الآمر «جميل يحب الجمال» كما جاء فى الحديث المشهور الذى رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

والعبرة التى ينبغى أن يلتفت إليها كل مسلم يتأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام أن الجمال أمر مقصود فى الخلْق والخُلُق .. وهو من مطلوبات الدين .. وكل جميل فهو من الدين، وكل قبيح ليس من الدين.

وتعالوا بنا نقرأ آيات بينات من سورة النحل تلفت نظرنا إلى الجمال، وتؤكد لنا أن الجمال قيمة من قيم الدين، وليس ـ فقط مبحثاً من مباحث الفلسفة.

* ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٥ - ٦].

* ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

[النحل: ٨].

* ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... ﴾ [النحل: ١٣].

* ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴾ [النحل: ١٤].

فالأنعام فيها جمال، والخيل والبغال والحمير زينة .. والزينة جمال، واختلاف ألوان ما يخرج من الأرض وما ينتشر فيها .. واختلاف الألوان جمال، واستخراج الحلية من البحر ولبسها .. شكل من أشكال الجمال.

وبذلك تكتمل صور الجمال فى الدين ..

* فالله جميل يحب الجمال.

* والرسول عليه الصلاة والسلام .. جميل الخلْق والخُلُق.

* والجمال .. أمر مقصود فى صنع الله وفى خلق الله.

فتعالوا بنا ننشد الجمال فى كل شىء، وننبذ القبح فى كل شىء.

# (٤٥) الاستكبار .. داء وبيل

## أخرج إبليس من الجنة

## وحرم على أتباعه دخولها

يقول تعالى فى سورة الأحقاف :

* ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١].

هذه الآية تعرض لنا صورة من صور استكبار الكافرين بغير الحق .. وهذا الاستكبار هو السبب الذى جعل الله الكبير المتعال يصرف هؤلاء المستكبرين عن آياته ـ التنزيلية والكونية ـ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فقد رأى هؤلاء أن الذين اتبعو الرسول عليه الصلاة والسلام هم الفقراء والضعفاء والعبيد والإماء فوقع فى ظنهم ـ وساء ما يظنون ـ أن الإسلام ليس خيراً، لأنه لو كان خيراً ما سبق إليه هؤلاء ولسبقوا هم إليه. وهذه تزكية لنفوسهم لا يستحقونها وكأنهم أصبحوا ـ فى نظرهم لأنفسهم ـ الميزان الذى يوزن به الخير والشر، والفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل. وهذا خطأ فادح وقعوا فيه .. وصدق من قال: «يُعرف الرجال بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال». والذى أوقعهم فى هذا الخطأ الفادح أنهم رأوا أنفسهم أهل الثراء وأهل الشرف والمكانة فى أعراف الجاهلية وبالتالى فهم أولى بالخير من غيرهم، وإذا كان موقفهم من الإسلام هو الإنكار والإعراض والتكذيب .. فهو إذاً ليس بخير.

والمستكبر إذا كان ثريًا .. يرى أنه مستحق لهذا الثراء دون غيره، وإذا كان ذا سلطان يرى أنه مستحق لهذا السلطان دون غيره، وكذلك الأمر إذا كان ذا علم أو منزلة رفيعة من منازل الدنيا .. وكأن ألوان الخير جميعها لم تخلق إلا له، أو لم تخلق إلا من بعد وجوده، أى أن هناك تلازماً بينه وبينها .. وإن لم يوجد هو لم توجد هى.

والقرآن الكريم يتضمن أمثلة لهذا الاستكبار .. نذكر منه :

* قوله تعالى على لسان صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ ثم استطرد قائلاً بعد ذلك: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٦].

ويتضح من كلام هذا المستكبر أنه يرى فى نفسه أنه محبوب الأقدار وأنه المرشح دائمًا للسعادة وألوان الخير كلها، وإذا كان الأمر كذلك فى الدنيا، فإن كانت هناك آخرة فإن نصيبه منها سوف يكون خيراً من نصيبه فى الدنيا .. فإذا سألناه من أين أتيت بهذا الحكم، وكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟! قال: أنه بذاته مستحق لكل خير أينما حل فى كل وقت وحين سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة.

* وتأكيداً لهذا المثال .. يقول تعالى على لسان الإنسان .. كل إنسان مصاب بداء الاستكبار: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ...﴾ [فصلت: ٥٠].

وهيهات .. هيهات أن يجد الأمر كما يظن .. فالحسنى لمن أحسن، والسوأى لمن أساء. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

* واستمع إلى قوله تعالى على لسان قارون رداً على نصائح قومه له: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ...﴾ [القصص: ٧٨].

* ونختم بأشهر نماذج الاستكبار فى الأرض بغير الحق .. فرعون وملئه .. الذين قال تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]. وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٦].

وكان من نماذج استكباره قوله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقوله لملئه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا

أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. وقوله لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. وقوله لهم أيضًا: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. وقوله لهم عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. ثم ختم أقواله الفاجرة والمستكبرة بقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾.

[النازعات: ٢٤].

* فماذا كانت عاقبة كل هؤلاء المستكبرين وغيرهم ؟

أما عن صاحب الجنتين فقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

[الكهف: ٤٢].

وأما عن قارون فقال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وأما عن فرعون فقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

لقد كانت تلك العاقبة فى الدنيا .. أماعاقبة الاستكبار فى الآخرة فيصورها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

* فإذا رجعنا إلى آية الأحقاف مرة أخرى فسوف نجد أن الشطر الثانى من الآية ﴿ ... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ يؤكد ما ذهبت إليه ظنون المستكبرين فى الشطر الأول منها .. فكما قالوا أن هذا الدين ليس بخير لأن الذى سبق إليه هم الفقراء والضعفاء، قالوا عندما لم تنشرح صدورهم إليه وإلى آيات القرآن الكريم .. إن هذا القرآن إفك قديم .. أى كذب يردده الناس عن القدماء .. أو كما قالوا فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

أى أن العلة فى القرآن وليست فيهم .. فكيف تكون فيهم وهم - فى نظرهم لأنفسهم - ميزان الخير والشر، وفرقان الحق والباطل؟!! .. فهذا الشطر الثانى من الآية دليل آخر على استكبارهم فى الأرض بغير الحق .. والاستكبار داء وبيل يحول بين الإنسان والحق، وما كان إبليس إبليسًا إلا بهذا الاستكبار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. أو كما قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

* وقد نهى الله تعالى عن الكبر فى أكثر من موضع من القرآن الكريم مثل قوله عز وجل :

* ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

* ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

* ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

* كذلك جاء فى السنة أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام تنهى عن الكبر نذكر منها :

* عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم. وبطر الحق: دفعه ورده على قائله. وغمط الناس: احتقارهم.

* وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: العز إزارى والكبرياء ردائى، فمن نازعنى فى واحد منهما فقد عذبته» رواه مسلم.

فليحذر المستكبرون فى الأرض بغير الحق .وليتفكروا فيما حدث لأمثالهم السابقين من المستكبرين وليتدبروا ما جاء فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام الذى قال عن التواضع الذى هو الدواء لداء الاستكبار: « ... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله» رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ .

(٤٦)

# تواضع الإمام مالك وتقواه لله

يقول تعالى فى ختام سورة المرسلات :

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٨ - ٥٠].

هذه الآيات البينات التى تختتم بها سورة المرسلات هى التى سوف تقودنا إلى هذا الموقف الرائع الذى يُظهر لنا تواضع الإمام مالك - ﷺ - وتقواه لله عز وجل وأن وصف الإمام لا تخلعه الأمة الإسلامية على أحد من علمائها إلا إذا كان جديراً بهذا الوصف علماً وعملاً وخلقاً.

إن هذا القول الذى ورد فى الآيات قيل للمكذبين بحقائق الإيمان وأساسها الإيمان بالله واليوم الآخر .. واختلف المفسرون بشأن هذا القول إلى فريقين.

**الأول** : أن هذا القول يقال للمكذبين فى الآخرة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢].

والركوع والسجود إشارة إلى الصلاة، ومن لم يركع ويسجد لله فى الدنيا فلن يستطع ذلك فى الآخرة.

**والثانى** : أن هذا القول يكون فى الدنيا فيكون معناه أنه إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس لم يؤمنوا، فالركوع إشارة إلى الصلاة، والصلاة علامة الإيمان وهى عماد الدين كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ويعرف بها المؤمنون مصداقًا للحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» رواه الترمذى.

والصلاة بركوعها وسجودها دليل على الخضوع لله وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى، وامتناع الكافرين عن الصلاة - أى عن الإيمان دليل على التمرد واتباع الهوى الذى يهوى بأصحابه فى النار.

واستمع إلى سؤال أصحاب اليمين والموجه للمجرمين: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٤٢]، واستمع إلى الإجابة التى توضح الأسباب وأولها: ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر: ٤٣]، وتأتى بعد ذلك باقى الأسباب.

ومما يذكر فى شأن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾ أن الإمام مالك رضي الله عنه دخل المسجد بعد صلاة العصر وجلس فقال له غلام كان يجلس بجواره دون أن يعرفه: يا شيخ قم فاركع (والغلام يقصد أن يقوم فيصلى ركعتين تحية للمسجد) فقام الإمام مالك فصلى ركعتين تحية للمسجد. فقيل للإمام: لقد عُرف عن مذهبك أنك لا تصلى تحية المسجد فى أوقات الكراهة (ومنها الوقت ما بين العصر وأذان المغرب) فقال لسائليه: خشيت أن أكون ممن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ فقمت وصليت ركعتين ولم أحتج على الغلام بمذهبى.

يا له من موقف رائع للإمام مالك فيه عبرة وعظة للمتشنجين والمتمذهبين، فإن خشيته لله غلبت رأيه ومذهبه، وأن تواضعه دفعه وهو إمام أن يأتمر بأمر هذا الغلام.

وتختم السورة بكلمة أخيرة للمكذبين الذين توعدهم الله تعالى بالويل والعذاب الشديد عشر مرات فى هذه السورة. تختم السورة بقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠]. أى فبأى حديث بعده يصدقون. وقد تحداهم الله فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم أن يأتوا بمثله إلى أن قال عز وجل ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤]

فمن لم يهتد بالقرآن لا يهتدى بغيره أبدا. وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا قرأ سورة المرسلات قال عند ختامها بهذه الآية : آمنت بالله وبما أنزل.

ونقول معه : آمنا بالله وبما أنزل.

(٤٧)

# لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

يقول تعالى فى أول سورة الطلاق :

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١].

* الزواج من سنن الفطرة، وسنة الأنبياء والمرسلين ـ إلا البعض منهم لحكمة ـ وعن طريقه تتم الإرادة الإلهية بعمران الأرض بالذرية، وبه يكون إحصان الفروج من الزنا والمحافظة عليها من الوقوع فى الفاحشة، وبه يعف كلٌ من الزوجين نفسه عن الحرام، وبه يكون سكن الرجل للمرأة، والمرأة للرجل، ويدوم هذا السكن بالمودة والرحمة، وينتهى بالكراهية والغلظة فيكون الفراق ويكون الطلاق.

وعقد الزواج وصفه الله وصفًا يلفت النظر لم يصف به عقدًا آخر سوى ميثاقه مع النبيين. واستمع إلى قوله تعالى ناهيًا من أراد أن يستبدل زوجًا مكان زوج أن يأخذ منها مالاً سبق له أن أعطاه لها من صداق وغيره كشرط لطلاقها وعدم تعليقها ..

* ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

واستمع إلى قوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام عن الميثاق الذى أخذه من النبيين جميعاً :

* ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

لقد وصف الله ـ تعالى ـ عقد الزواج وميثاقه مع النبيين .. بالميثاق الغليظ،

ولهذا دلالته القوية التى ينبغى أن يلتفت إليها كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر عندما يتعامل مع عقد الزواج .. عقداً عند الزواج وحلاً عند الطلاق بكل اعتبار واحترام ويتقى الله فى الحالتين؛ لأن تقوى الله هى الضمان الوحيد لإتمام الزواج أو إنهائه بالطلاق على الوجه الذى يرضاه الله دون ظلم أو إجحاف بحق أحد الطرفين. لذلك يتكرر التذكير فى السورة بتقوى الله عز وجل عند الطلاق، وإحصاء العدة، وحقوق الزوجة المطلقة فى النفقة، وأجر الإرضاع إذا كانت تُرضع وقت وقوع الطلاق أو بعده إن كانت من أولات الأحمال.

* تبدأ السورة بنداء من الله عز وجل للنبى عليه الصلاة والسلام يأمره بأوامر وينهاه عن نواهٍ فى شأن طلاق النساء، رغم أن الرسول لم يطلق أحداً من نسائه اللاتى دخل بهن، فيكون الأمر للمسلمين فى شخص الرسول فهو الذى سوف يبلغهم، وهو الذى سوف يراقب تنفيذهم الأمر، وهو الذى سوف يستجيش تقواهم لله عند التنفيذ ..

وفى نفس الوقت فهو أسلوب لإظهار أهمية الأمر، والأهمية الكبرى التى يوليها الله ـ تعالى ـ للرابطة الزوجية، وكل ما يتعلق بأحكام الأسرة لأنها هى الخلية الأولى فى المجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد المجتمع .. فبماذا أمر الله سبحانه؟ وعن أى شىء نهى؟

* أمر الله ـ تعالى ـ المسلمين فى شخص الرسول عليه الصلاة والسلام .. إذا طلقوا النساء أن يطلقوهن وهن يستقبلن عدتهن أى فى طُهر لم يمسهن فيه أزواجهن. وهذا الأمر له حكمة بالغة. فمن امتنع عن زوجته وهى حائض يكون مترقباً لطهرها ومشتاقًا إليها ـ وهى كذلك ـ فتنعدم بذلك ـ غالبًا ـ فرص الخلاف بينه وبينها الذى قد يترتب عليه طلاقها. وبالتالى فمن طلق زوجته فى طهر لم يمسها فيه فإن ذلك يكون دليلاً قوياً على زهده فيها ونفوره منها، واحتمال التسرع والغضب والانفعال الشديد يكون بعيداً كسبب للطلاق بل يكون إذا وقع نتيجة تفكير متأن

وحساب دقيق وإرادة لا يشوبها مؤثرات طارئة.

* وأما من طلق زوجته وهى حائض أو فى طهر مسها فيه فإن الاحتمالات التى استبعدناها فى الحالة الأولى تكون متوافرة فى الحالة الثانية، وبالتالى فإن إرادة الزوج الذى يطلق زوجته قد تكون مشوبة بمؤثرات طارئة، واحتمال التسرع وعدم التروى يكون كبيراً .. والأسباب مفهومة.

وهناك سؤال يطرح نفسه .. هل يقع الطلاق إذا حدث والمرأة حائض أو فى طهر مسها فيه زوجها؟

والإجابة التى عليها الفتوى هذه الأيام أنه يقع ويسمى فى هذه الحالة طلاقًا بدعياً، وليس سنياً كما جاء الأمر فى الآية، ومع وقوعه يأثم الزوج ويعاقب من الله.

* فإذا كان الطلاق رجعياً لا تخرج الزوجة من بيتها خلال فترة العدة، والتفت إلى نص الآية ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ .. فالبيت لازال بيتها لأنها لازالت على ذمة زوجها ويستطيع أن يراجعها دون عقد أو مهر جديدين، وإذا مات زوجها خلال فترة العدة .. فإنها ترثه.

والنهى عن الخروج له استثناء ورد فى الآية ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ... ﴾ فإذا حدث من الزوجة ما تشير إليه الآية فإنها تخرج من بيت زوجها لأنه سوف يترتب على وقوع الفاحشة المبينة أن يتلاعن الزوجان، فإذا اعترفت الزوجة أقيم عليها الحد وهو الرجم حتى الموت، وإذا أنكرت تم التفريق بينها وبين زوجها تفريقاً أبدياً سواء كانت زوجة أو مطلقة طلاقاً رجعياً عندما أتت الفاحشة المبينة.

* ونعود إلى النهى عن الخروج بعد أن أوضحنا الاستثناء حيث يؤكد الله ـ تعالى ـ على ضرورة الالتزام بذلك .. فهى حدوده التى لا ينبغى لأحد من المؤمنين ـ إن كان مؤمناً بالله واليوم الآخر ـ أن يتجاوزها أو يتعداها، ومن تعداها يكون قد ظلم نفسه لأن تطبيق هذا النهى له حكمة وله بركة سوف نوضحها بعد قليل ولأنه يكون

قد عرّض نفسه لغضب الله ـ سبحانه ـ وعقابه .. وكان الأولى به أن يقف عند حدود الله ولا يتعداها.

أما عن حكمة هذا النهي فيشير الله إليها في الآية بقوله تعالى: ﴿ ... لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ .. فما الأمر الذى قد يحدثه الله بعد ذلك ؟

لا يغيب هذا الأمر عن نظر الأزواج، فالزوج الذى طلق زوجته طلاقًا سنيًا أو بدعيًا وكان رجعيًا ولم تخرج من بيتها ولم يُخرجها هو بدوره، وانفصل كل واحد منهما بفراش مستقل عن الآخر داخل البيت، فلابد أن أحدهما سوف يحتاج إلى الآخر فى شأن من الشئون فيتكلمان ويتعاملان ويكون الغضب ـ الذى غالبًا ما يكون سببًا للطلاق فى كثير من الأحوال ـ بدأ يقل تدريجيًا وفى نفس الوقت يكون شوق كل منهما للآخر بدأ يزيد تدريجيًا. ويسعى أحدهما أو كلاهما للآخر ملاطفًا أو معتذرًا عما بدر منه، فإذا لمس الزوج زوجته وهو يلاطفها فإنه يكون بمجرد لمسها قد راجعها فى رأى بعض الفقهاء، أما إذا قَبّلها أو جامعها فإن رجعتها إليه تكون قد تأكدت حتى ولو لم يتلفظ بألفاظ الرجعة فإنما الأعمال بالنيات .. والنية أصبحت واضحة بلاشك.

وهذه هى حكمة الله البالغة فى نهيه عن خروج الزوجة المطلقة طلاقًا رجعيًا من بيتها خلال فترة العدة .. وسبحان من هذا نظامه، وسبحان من هذا كلامه.

* يبقى من الآية الأولى من سورة الطلاق قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ ..

فإن عدة المرأة التى تحيض ثلاثة قروء .. أى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، وعدة المرأة التى لا تحيض لمرض أو لكبر السن ثلاثة أشهر ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾. أما المرأة الحامل فعدتها أن تضع حملها .. ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾ وهذا الإحصاء تؤتمن عليه الزوجة فهى فيه أميرة نفسها، ولذلك احتاج الأمر إلى الإشارة إلى تقوى الله فى الآية التى تتضمن هذه الأحكام، وفى كل الأحكام الواردة

فى السورة ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾.

[الطلاق: ٢، ٣].

* وبالإضافة إلى الإشارة إلى التقوى التى تشيع فى جو السورة كله .. فاستمع أيضاً إلى ما قاله الله ـ تعالى ـ بين ثنايا أحكامها :

* ﴿ ... وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ... ﴾ [الطلاق: ٦].

* ﴿ ... وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ... ﴾ [الطلاق: ٦].

* ﴿ ... لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾.

[الطلاق: ٦].

وهذه الإشارات الربانية بين ثنايا الأحكام لا يلتفت إليها إلا تقى، والتقى ينزلها من نفسه منازل الأحكام ذاتها .. لذلك كان لابد أن يشيع جو التذكير بالتقوى فى السورة كما سبق القول وبدون التقوى لن تطبق هذه الأحكام على الوجه الذى يرضى الله ويحقق حكمته من فرضها.

وخير ختام لهذا الحشد من الإشارات والتنبيهات والتحذيرات التى وردت فى سورة الطلاق أن ننقل هذه السطور أو هذه الانفعالات لصاحب الظلال .. رحمه الله :

«يقرأ (القارئ) هذا كله تعقيبًا على أحكام الطلاق. و يجد سورة كاملة فى القرآن من هذا الطراز، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان فى المجال الكونى والنفسى. وهى حالة تَهَدُّم لا حالة بناء، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء .. لأسرة .. لا لدولة .. وهى توقع فى الحس أنها أضخم من إنشاء دولة علام يدل هذا؟ إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشرى على وجه التأكيد. حتى لو لم تكن

هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة!».

إنها كلمات من نور لمسلم أضاء الله له بصيرته فأيقن بحقائق الإيمان، وعدالة النظام، وحكمة التشريع، وسمو الدين، فأراد أن ينقل إلينا هذا اليقين فيكون بذلك أهدى إلينا نعمة من أعظم النعم مصداقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

«سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة» أخرجه الترمذى وابن حبان من حديث أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤٨)

آل داود . وقوم سبأ

اعملوا آل داود شكرا

وقليل من عبادي الشكور

يقول تعالى فى سورة سبأ :

* ﴿ ... اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

لولا هذه الآية ما علمنا أن الشكر عمل،وليس مجرد قول. أما أن قليلاً من العباد شكور فهو معنى متكرر كثيراً فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وبتعبير آخر قوله تعالى: ﴿ ... فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

## فما هو الشكر :

إن المعنى اللغوى لهذه الكلمة يساعدنا كثيراً على فهم معنى الشكر.

تقول العرب: «شكرت الناقة» .. أى امتلأ ضرعها حتى تساقط منه اللبن دون حلب، و«شكرت البئر» .. أى امتلأت حتى فاض على جانبيها الماء وأتيح لطالبه دون تدلية الدلو.

فإذا طبقنا هذا المعنى اللغوى المادى على الشكر المعنوى نجد أن المعنى يتطابق. فالعبد عندما يمتلئ بما أفاض الله عليه من النعم ثم تفيض هذه النعم عن حاجته .. عليه أن يفيض على عباده من هذا الفائض .. فإن فعل فقد شكر الله على نعمائه.

ونعم الله ليست أموالاً وأشياءً مادية فقط توفى حاجة الإنسان أو تفيض عنها، ولكنها تشمل أيضًا نعمًا ليست مادية مثل أنواع المعارف الدينية والدنيوية، وأنواع المواهب والملكات. فمن أفاض الله عليه بنعمة المال أو أى متاع من متاع الدنيا فعليه أن يفيض ببعضه على من ليس عنده مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من كان معه فضل ظهر (دابة)فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه وهو راوى الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل (ما فاض عن الحاجة) - رواه مسلم.

ومن أفاض الله ـ تعالى ـ عليه بنعمة العلم عليه أن يعمل وينتفع به، وعليه أيضاً أن يُعلّم غيره ويفيض عليه من علمه فيكون بذلك من خير الناس مصداقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم العلم وعلّمه»، و«خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه الستة وغيرهم.

وطبقاً لهذا المفهوم للشكر .. كان أمر الله لآل داود أن يعملوا شكراً. وقد أمرهم بذلك بعد أن عدد لهم ألوان النعم التى أفاض بها عليهم حتى امتلئوا بها وفاضت عن حاجتهم ..

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣].

ومما يؤكد معنى أن الشكر عمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام رداً على السيدة عائشة رضي الله عنها عندما رأته يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقالت له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر (تريد منه أن يهوّن على نفسه) فقال لها: «أفلا أكون عبداً شكوراً» رواه البخارى ومسلم. ولم يقل لها أفلا أكون عبداً حامداً.

* ولكن ما الفرق بين الحمد والشكر ؟ سؤال يطرح نفسه.

لقد أثبتنا أن الشكر عمل، أما الحمد فهو قول مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء: ١١١].

ومن أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» متفق عليه.

وحمد الله بالقول لا يقل أهمية عن شكر الله بالعمل .. فكلاهما تعبير عن امتنان العبد لنعم الله التى لا تعد ولا تحصى.

ويكفى لإبراز هذه الأهمية التذكير بأن كتاب الله يبدأ بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]، وأن آخر دعوى المؤمنين فى الجنة: ﴿... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وأن اسم الرسول عليه الصلاة والسلام مشتق من الحمد فهو محمد، وأحمد، وهو حامل لواء الحمد يوم القيامة.

ونسأل الله سبحانه وتعالى باسميه الحميد والشكور أن يجعلنا من الحامدين بالقول والشاكرين بالعمل، وأن يجعل آخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* وفى مقابل هذه الصورة الوضيئة للشكر والشاكرين، نجد صورة أخرى قاتمة معتمة للبطر والجحود لنعمة الله .. وبضدها تتميز الأشياء.

فى مقابل آل داود الشاكرين نجد قوم سبأ المتبطرين الجاحدين .. وهذه هى طريقة القرآن الكريم فى المقابلة بين الأضداد حتى تصل المعانى المقصودة واضحة جلية لقارئ القرآن .. والسعيد من وعظ بغيره.

* فماذا عن قوم سبأ ؟ وماذا قال عنهم القرآن الكريم ؟

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

[سبأ: ١٥ - ٢١].

وسبأ كانوا قوماً يسكنون أرض اليمن، وكانت لهم جنتان عن اليمين والشمال .. دليلاً على وفرة الخير، فهم مرزوقون من الرازق برزق، أما عن الرازق فهو رب غفور، وأما عن الرزق فهو بلدة طيبة تطيب فيها الثمار، وأما عن المرزوقين فهم جاحدون للنعمة ومتبطرون، ويُقبحون هذه الصورة الجميلة التى رسمها الله عن أحوالهم لكى يبدو جحودهم وبطرهم واضحاً ومقبحاً.

وعاجلنا الله ـ تعالى ـ بذكر جزاء إعراضهم وبطرهم بأن أرسل عليهم سيلاً عارماً دمر وخرب جنتيهم الطيبة الثمار وبدّلهما بجنتين ثمارهما ردىء (الخمط)، وشجر لا ثمر له (الأثل)، وشجر النبق الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع (السدر) .. وهذا جزاء كل من يتبطر ويجحد نعمة الله.

لقد جاءت آيات الجزاء كجملة اعتراضية، لأن الله ـ تعالى ـ استطرد بعد ذلك فى سرد ألوان النعيم التى كانوا ينعمون بها قبل الدمار الذى لحق بهم. فقد كانوا يحملون الثمار التى تفيض عنهم فى رحلة تجارة إلى الشام وهى القرى التى بارك الله فيها لأنها مبعث الأنبياء ومهبط الرسالات. وفى الطريق الذى بينهم وبين الشام قرى ظاهرة يستريحون فيها من عناء السفر وقد أمّن الله لهم طريقهم من غارات قطاع الطرق بوجود هذه القرى فلا يشعرون بطول السفر ويأمنون من الخوف.

فهل شكروا الله ـ الشكور ـ على ذلك بعملهم، وهل حمدوا الله ـ الحميد ـ بقولهم ؟

إن طبيعة الجاحد لنعمة الله طبيعة نكدة، ونفسه ليست سوية فيصدر عنها ما لا يُعقل ولا يُتوقع .. فبدلاً من أن يشكروا الله ويحمدوه على كل هذا النعيم والتيسير

والأمن .. سألوا الله ـ تعالى ـ أن يباعد بين أسفارهم لكى تكون أكثر مشقة، فلم يرتضوا الراحة وطلبوا المشقة. ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وطلب لها الهلاك بدلاً من النجاة والأمان، فما كان من الله ـ تعالى ـ إلا أن أرسل عليهم هذا السيل العارم، وما قصه الله علينا فى الآيات التى ذكرناها آنفًا، وجعل ما حدث لهم أحاديث تسير بها الركبان عن عاقبة من يجحد نعمة الله فأصابه البطر، ومزقهم الله كل ممزق .. إما فى أرضهم، وإما بتشتيتهم فى الأرض حتى يباعد بين أسفارهم كما طلبوا لأنفسهم .. وجعل قصتهم آية لكل صبار شكور لكى يحمد الله على نعمة الصبر والشكر التى حُرم منها قوم سبأ .. فكانت عاقبتهم ما قصه الله ـ تعالى ـ علينا.

* إن قوم سبأ وأمثالهم من المتبطرين والجاحدين لنعمة الله هم الذين يتساقطون فى الشباك التى نصبها لهم إبليس، وهم الذين تحقق بهم الوعد الذى قطعه على نفسه أمام الله عندما قال: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وحتى لا يظن أحد أنهم كانوا مقهورين على اتباع إبليس .. قال تعالى: ﴿ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. لإثبات أنهم اختاروا لأنفسهم طريق الكفر والجحود واتباع إبليس، لأن هناك فريقًا منهم رفضوا السير فى هذا الطريق، ولم يستجيبوا لدعوة إبليس واستجابوا لدعوة الله ـ تعالى ـ فآمنوا وشكروا وحمدوا له نعمته عليهم.

ويؤكد الله تلك الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾.

وإبليس نفسه سوف يؤكد لهم هذه الحقيقة يوم القيامة حينما يقول لهم: ﴿ ... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ... ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

بعد هذا العرض القرآنى الواضح والجلى .. اتضحت لنا المقابلة بين شكر الشاكرين، وكفر الكافرين.

وما القصص القرآنى إلا لخدمة الهدف الأسمى، والغرض الأرفع، وإثبات الحقيقة الكبرى التى لا مراء فيها، والنبأ العظيم الذى لا جدال فيه، واليوم الآخر الذى لا ريب فيه .. لذلك ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

فسوف يحفظ الله للشاكرين شكرهم، ويحفظ للكافرين كفرهم .. حتى يكون الحساب جزاءً وفاقًا .. فالجنة للشاكرين، والنار للكافرين.

اللهم أعنّا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك.

.. آمين .